﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: 63 - 67]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال في الأدلَّة المحسوسة من البرهان الإنسانيّ إلى البرهان النَّباتيّ

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة أمر التَّكاثر من خلال ذكر مادَّته الأصيلة، وهي المنيُّ؛ ناسب أن يذكر كيفيَّة استمرار الحياة بعد التَّكاثر، فذكر الزَّرع والحرث، وذكر الزَّرع؛ لأنَّه أشبه شيءٍ بالجماع وإلقاء النُّطفة، ولذلك سُمّيت المرأة حرثًا، ووصل بما مضى مسبَّبًا عنه قوله منكِرًا عليهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾[1]؛ إذ أُتبعت آيات الخلق والنَّشأة بآيات النَّبات والزَّرع، ثمَّ الماء، ثمَّ النّار، وهي آيات محسوسة مشاهدة، يُلزم الله بها العقول أن تؤمن بإمكان البعث، فالمناسبة في غاية الإحكام؛ إذ يُساق لهم من خلقهم، وممّا بين أيديهم، ما يدلُّ على أنَّ البعث ليس بأبعد ممّا يشاهدونه كلَّ يوم، وهذا من أعظم أساليب القرآن في الإقناع العقليِّ والتَّذكير الحسّيِّ، الَّذي يُسقط كلَّ شبهة، ويكشف ما في النُّفوس من تجاهل وتكذيب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُطَٰمًا﴾: (حطم) يدلُّ على الكسرِ والسَّحقِ والتَّهشيم، والحُطام في أصلِ معناهُ المعجميِّ هو ما تكسَّر، وتفتَّت من الشَّيءِ بعد يَبسه، فيُقال: حَطَمَ الزَّرعُ؛ إذا يَبِسَ، ثمَّ تكسَّر حتَّى صار فتاتًا لا يُنتفَع به، ويُقال للحطب اليابس المتكسِّر: حُطام[2]، وكان عمرو بن العلاء يقول: إنَّما التَّحطيم للشَّيء اليابِس نَحو الزُّجاج وما أشبهه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 417.
(2) الخليل، العين: (حطم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حطم).

2) ﴿فَظَلْتُمْ﴾: (ظلّ) من الأفعالِ النّاقصة، ومعناها الأصليُّ في اللُّغة هو: البقاء في حالٍ ما خلالَ النَّهار، وظلَّ فلان يفعل كَذا؛ إذا عمله نَهارًا، فأمّا اللَّيل؛ فلا يُقال: ظلَّ يفعل[1]، ثمَّ اتَّسع معناها فصارت تُستعمَل لكلِّ استمرارٍ في الزَّمان، لا سيَّما إذا اقترن بسياق يَدلُّ على تحوُّل مفاجئ، أو مفارقةٍ لما كان مألوفًا من حال.

وفي هذا الموضع، جاء قوله: ﴿فَظَلْتُمْ﴾؛ ليفيد معنى: فأصبحتم، واستمررتم بعد ذلك في حالٍ من الدَّهشة والتَّأسُّف والحيرة.

3) ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: (فكه) يدلُّ في أصل معناه على التَّلذُّذ والفرح، لكنَّه في هذا السّياق يُراد به التَّهكّي بالكلام عن الخيبة والمصيبة، لا عن السُّرور، فقد جاء لفظ "تَفَكَّهونَ" بدلالته المعجميَّة؛ ليعبِّر عن حالةٍ من التَّعجُّب المزوج بالتَّحسُّر، فالتَّفكُّه هنا هو حديث المتعجب المتألّم[2]، فقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، أي: تعجبون ممّا نزل بكم في زرعكم؛ إذا صار حطامًا، ويُقال: تَفَكَّهونَ: تندمون[3].

4) ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾: (غرم) أصلٌ يدلُّ على لزوم الشَّيء وثقله، ومنه الغُرمُ: أداءُ شيء لزمَ من قبل كفالةٍ أو لزومٌ نائبة في مالهِ من غير جناية، غَرِمْتُه أغْرَمُه[4]، كما يقال: غَرِمَ فلانٌ غُرمًا؛ إذا تحمَّل خسارةً أو دَينًا لم ينفعه فيه ربحٌ ولا جَبر، وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، أي: معذَّبون، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: 65]، أي: هَلَكَةً[5]، فهو عذاب ملازم شديد كلزوم الغريم للغريم[6].

5) ﴿مَحْرُومُونَ﴾: (حرم) يدلُّ في أصل معناه على المنع الشَّديد، وهو على ثلاثة أوجه: المنع، والتَّحريم بعينه، ومحلُّ التَّحريم، فوجهٌ منها: الحرام يعني المنع قوله تعالى: ﴿*وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: 12]، أي: منعناه عن المراضع[7]، ومنه الحِرمان:

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ظلّ).
(2) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (فكه).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 488.
(4) الخليل، العين: (غرم).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 488.
(6) ابن عبّاس، مسائل ابن الأزرق: 1/ 196.
(7) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (حرم).

ضدُّ الإعطاء، يُقال: حَرَمهُ الشَّيءَ؛ إذا منعه إيّاه مع حاجته إليه، والحرمان قد يكون حسّيًّا كمنع المال، أو معنويًّا كمنع الخير والنِّعمة أو الجاه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيات الكريمةُ مشهدًا من المشاهد الدّالَّة على البعث، وهو مشهد الزَّرع، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، أي: تأمَّلوا ما تبذرونه في الأرض، وتباشرونه بأيديكم، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾، أي: أأنتم تُنبتونه، وتُخرجونه نباتًا حيًّا ناضجًا، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، بل نحن وحدَنا القادرون على إنباته، وإتمام خَلقه، وإنمائه، ثمَّ يبيِّن سبحانه أنَّ هذا الزَّرع الَّذي تفرحون به، وتظنّون أنَّكم تملكونه، هو في قبضته، ولو شاء؛ لتركه ﴿حُطَٰمًا﴾، أي: يابسًا متكسِّرًا لا نفع فيه، فلا تحصدون منه شيئًا[1]، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، تتحيَّرون، وتتعجَّبون، وتتحسَّرون، قائلين: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، أي: خسرنا ما أنفقنا من مالٍ وجهد؛ فعبَّروا عن حالهم بأنّهم واقعون في الغُرم والخسارة الشَّديدة، وكأنَّهم قد أصيبوا بدَيْنٍ ثقيلٍ لا قِبَلَ لهم به، ولا ذنبَ لهم فيه، فهلك الزَّرع، وبقيت الكلفة، وتبدَّد الأمل، وانقلب الرَّجاء إلى حِملٍ من الحسرة والضَّياع.

من غاب عنه فهْمُ وجوده؛ فلينظر إلى إيجاد النَّبات والحرث

فعبَّر أصحاب الزَّرع المفقود عن حالهم بقولهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أي: قد بلغ بنا الأمر إلى أن حُرمنا أصل النِّعمة، فلم نحصد منها شيئًا، لا ثمرةً ولا بديلًا.

فهذه الآيات تذكيرٌ للمنكرين، بأنَّ الله الَّذي يُحيي النَّبات بعد أن كان بذرًا ميّتًا، ويُتمُّ خلقه في أطوار، ويملك تحويله حطامًا بعد أن نضج، لهو القادرُ على إحياء الإنسان بعد موته، تمامًا كما خلقه أوَّل

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 237.

مرَّة، بل الأمر في البعث أهون؛ لأنَّ المادَّة مخلوقة، والنَّشأة معلومة، وإنَّما الشَّأن في التَّذكُّر، لا في الجحود.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الاستفهام وبلاغته في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

تقرير عموم المخاطَبين وتوبيخ المنكرين بما تشاهده أعين المبصرين

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ مثل نظائره السّابقة، وهو بمعنى: أخبروني[1]، وهو لتقرير المخاطَبين على ما يرونه من آثار قدرة الله تعالى في الزَّرع والإنبات، وقد أفاد توبيخ المنكرين وتقريعهم، وهو يوقظ الغافل من وهم الاكتفاء الذّاتيِّ، ويقرِّر عجز الإنسان في صورة سؤال ظاهر، ومعنى باطنه الإنكار والتَّقرير، فالإنسان يحرث، لكنَّه لا يزرع، يبذر الحبَّ، ولا يملك إحياءه، يأتيه السُّؤال: أأنتم تزرعونه أم نَحنُ الزّارِعونَ؟ فيتبدّى له أنَّ فعله لا يعدو التَّهيئة، أمّا الإيجاد والإنبات؛ ففعل الله وحده، فجاء الاستفهام في ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ ليقرع حجاب الإلف والعادة، وليوقظ من وراء العين عقلًا، ومن وراء الحسِّ وعيًا، فالقرآن لا يسألهم عن مجرَّد النَّظر إلى المحراث في الأرض، بل يسألهم: هل رأيتم الحقيقة الكامنة وراء هذا الفعل؟ هل أدركتم أنَّ الزَّرع ليس منكم؟ وأنَّ الحياة ليست من يدكم؟ وأنَّ الخصب والمطر والنَّماء من عند الله؟.

نوع الفاء ودلالتها في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

ترتيب الأدلَّة وتكاملها بالتَّفريع على الأصول

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ تفريعٌ على ما قبلها من الأدلَّة، ووجه الرَّبط أنَّ الآية السّابقة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، اشتملت على الاستدلال بإيجاد الإنسان أوَّل مرَّة، ففرَّع عليه دليل آخر من نوع الخلق ذاته؛ ليُستأنف به وجه جديد من وجوه البرهان على قدرة الله على الإعادة، وهذا التَّفريع يُفيد تعاقب الأدلَّة

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 4/ 221 و223.

وتكاملها، فكما وُجِد الإنسان من نطفة، وخلق الزَّرع من حبَّة، كذلك تكون الإعادة في قدرة الله سواء، فالفاء جاءت لترتيب مشاهد القدرة على بعضها، لا لمجرَّد التَّنقُّل، بل لبناء برهان متصاعد، يُلزم المنكرين بالاعتراف بصدق الوعد بالبعث[1].

تعيين المعطوف عليه في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ معطوف على مقدَّرٍ بعد الهمزة، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، فالفاء عاطفة على محذوفٍ مقدَّر دلَّ عليه السّياق، وتقديرها: (أحرثتم فرأيتم ما تحرثون)، فتكون ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ عطفًا على ذلك المُقدَّر.

وحدة البناء واتِّساق الغرض في تقدير المعطوف عليه

نوع الرُّؤية في جملة ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، ليست رؤية بصريَّة مجرَّدة، يُكتفى فيها بمجرَّد النَّظر، بل هي رؤية عقليَّة تأمُّليَّة، تقصد إلى إدراك المعنى الكامن وراء المألوف المحسوس، وتسعى لكشف ما وراء الظّاهر من قدرة وحكمة وتدبير، فالمراد بالرُّؤية هنا: رؤية تدبُّر وتفكُّر، لا مجرَّد المعاينة بالعين؛ لأنَّ المعاينة وحدها لا تورث العلم، ولا توقظ الغفلة؛ ما لم يُعقبها نظر القلب وعمل العقل.

الرُّؤية في قوله (أفرأيتم)، خطاب للعقل بلسان الحس

ويدلُّ على ذلك أن الأشياء المذكورة - الحرث، والزَّرع، والماء، والنّار - هي أشياء يراها النّاس كلَّ يوم، لكنَّهم لا يرون فيها ما ينبغي أن يُرى، لا يرون قدرةَ الخالق في غيرِها من البعث والنُّشور، ولا سرَّ الإحياء بعد السُّكون.

نوع ﴿مَّا﴾ ودلالتها:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ اسم موصول، بمعنى الَّذي، وهي من أدوات العموم، تدخل على غير العاقل[2]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 319.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.

ولكنَّها تُستعمَل أحيانًا لما فيه معنى المصدريَّة أو المفعوليَّة بحسب السّياق، وقد جاءت هنا؛ لتدلَّ على مفعول فعل الرُّؤية، والمعنى: أفَرَأيتُم الشَّيءَ الَّذي تحرثونه، أي: أفَرَأيتُم ما تضعونه في الأرض من البذر، وتباشرون به فعل الحرث، من حيث تهيئة الأرض وبثُّ الحبِّ، وإيثارها ليدخل فيها كلُّ ما من شأنه أن يُحرث في الأرض، فهي للعموم.

كلُّ ما من شأنه أن يُحرَث في الأرض فداخلٌ في دلالة العموم

بلاغة استعمال مفردة ﴿تَحۡرُثُونَ﴾ دون مرادفاتها:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿تَحۡرُثُونَ﴾ دون غيرها؛ لما تحويه المفردة من معنى شقِّ الأرض وتقليب تُرابها وتهيئتها لتلقّي البذر، فهو أسبق مراحل الزَّرع، وهو فعل الإنسان المباشر الَّذي يبدو فيه أثر العمل والكدِّ، وهو ما يحسُّه الزّارع بين يديه، فكان اختيار الحرث باعتبارِ أوَّليَّة الزَّرع ووسيلته الَّتي يُباشرها الإنسان.

أوَّليَّة الحرث بداية إيقاظ العقول الخاملة

بلاغة الإيجاز في فعل ﴿تَحۡرُثُونَ﴾:

"ظاهر قوله: ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ أنَّه الأرض إلّا أنَّ هذا لا يلائم ضمير ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾، فتعيَّن تأويل ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ بأن يقدَّر: ما تحرثون له، أي: لأجله على طريقة الحذف والإيصال، والَّذي يحرثون لأجله هو النَّبات، وقد دلَّ على هذا ضمير النَّصب في ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾؛ لأنَّه استفهام في معنى النَّفي، والَّذي يُنفَى هو ما ينبت من الحبِّ لا بذره"[1].

الضَّمير كاشفٌ عن مواطن الإيجاز ومواضع الاختزال

غرض التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحۡرُثُونَ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ بالفعل المضارع ﴿تَحۡرُثُونَ﴾؛ للدَّلالة على تكرار الفعل واعتياده، ممّا يستدعي تأمُّلًا دائمًا في محدوديَّة قدرة الخلق، فجاء التَّعبير بالفعل المضارع؛ ليدلَّ على أمرين: استحضار الصّورة، واستمرار الفعل، فهو أوَّلًا

استحضار الأفعال المتجدِّدة بغرضِ التَّنبيه على الغفلة المتجدِّدة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 320.

يصوِّر الحدث، كأنَّه واقع أمام السّامع الآن؛ ليتأمَّله بعين قلبه، لا بعين عادته، فالمضارع هنا يُجسِّد مشهد الحرث الحاضر؛ ليفاجئ السّامع بسؤال: أأنتم تزرعونه؟ أي: أأنتم تنشئون فيه الحياة؟ وهذا أشدُّ وقعًا من السُّؤال عن فعل ماضٍ قد نُسي، وثانيًا، يدلُّ على أنَّ فعل الحرث عادة متكرِّرة، وهو ما يزيد في غفلة النّاس عنه لكثرة مباشرته، فجاء التَّعبير بالمضارع؛ ليقول لهم: هذا الَّذي تفعلونه دائمًا، هل تأمَّلتم حقيقته؟ وهل تبصرون مِن ورائه قدرة اللّه؟.

نكتة حذف المتعلّق بـ ﴿تَحۡرُثُونَ﴾:

توجيه الأنظار إلى معنى الحدث وقيمة الفعل

حذف المتعلِّق بالفعل ﴿تَحۡرُثُونَ﴾، والمعنى: ما تحرثونه في الأرض، فلم يقل: (ما تحرثون له)؛ لأنَّ الإطلاق أبلغ في التَّوبيخ والتَّنبيه؛ إذ يترك المجال للمخاطَب أن يملأ الفراغ من تجربته، فهو يعرف ما يحرثه، ويعلم أنَّه لا يقدر أن ينبت منه شيئًا، فيقع الإقرار في النَّفس من غير تصريح، كما أنَّ الحذف يُضفي على الجملة إيجازًا مشحونًا بالمعنى، ويُضمر فيه ما دلَّ عليه السّياق التّالي: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، والمعنى: أفَرَأيتُم ما تَحرُثونَ له من بذر، ثمَّ تنسبون إنباته لأنفسكم؟.

وهذا من أساليب الإبهام المقصود الَّذي يُراد به تفخيم الأمر وتوجيه النَّظر لا إلى الشَّيء المحروث وحده، بل إلى العمليَّة كلِّها، من حيث هي نظام وتقدير وتدبير لا يُحسن الإنسان منه إلّا حركة يده، أمّا الحياة الكامنة؛ فهي سرٌّ غائب.

تكرارُ الاستفهام مع اختلاف الأحداث استقلالٌ في الاستدلال

بلاغة تكرار الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ بيانٌ لجملة: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ إنكاريٌّ كالَّذي في قوله:

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾[1]، وتكرار الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، ليس من باب إعادة المعنى، بل هو ضرب من ضروب الزَّجر البيانيِّ والتَّقريع التَّقريريِّ، تُسلَّط به أضواء السُّؤال على موضع الجهل أو الغرور في نفس المخاطَب، فيُسأل صراحةً لا تلميحًا، ويُستفزُّ اعترافه، لا يُنتظر.

بلاغة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾:

مواجهةُ المخاطَب المنكِر تحدٍّ في التَّقرير وإبلاغٌ للمراد

قُدِّم المسند إليه (أنتم) على المسند الفعليِّ ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾؛ لإرادةِ توكيد الاختصاص وتثبيت المسؤوليَّة في موضع التَّحدّي؛ فكأنَّ السُّؤال لا يُلقى عرضًا: (أتزرعونه؟)، بل يُلقى في وجه المخاطَب مواجهة: أأنتم - دون سواكم - تزرعونه؟ أنتم بذواتكم؟ أنتم لا غيركم؟ فالتَّقديم هنا أداة مواجهة بلاغيَّة، فيها مسحة تحدٍّ، تُقرِّب الخطاب من شعور المستمع، وتستدرجه إلى الاعتراف، ثمَّ إنَّ في هذا التَّقديم قصرًا إضافيًّا، وهذا القصر في ذاته استفهام تقريريٌّ إنكاريٌّ، يُهيِّئ النَّفس لقبول نقيضه: أنَّ الزَّرع ليس منكم، بل من الله وحده.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾:

استحضارٌ للغفلة وتكرارٌ للتَّذكير لمن تولّاه النِّسيان بانعدام التَّفكير

التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ - لا الماضي (زرعتموه) - ليس مجرَّد دلالة على الزَّمن، بل هو اختيار بلاغيٌّ مقصود، يُراد به استحضار المشهد الحيِّ لحظة وقوعه؛ لتتَّقد الصّورة في ذهن المخاطَب، كأنَّها تقع بين يديه الآن، وهو يحرث، ويبذر، وينتظر الإنبات، فيباغَت بهذا السُّؤال التَّقريريِّ: أأنت تزرعه؟ أتملك سرَّ الحياة فيه؟ أم نَحنُ الزّارِعونَ؟ فهو مضارع تصويريٌّ استحضاريٌّ، يُراد به نقل الفعل من حيِّز الاعتياد إلى ساحة التَّأمُّل، ومن مجرى التَّكرار إلى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 321.

مقام التَّحدّي؛ ليُسأل المرء عن فعله، وهو في أثناء مباشرته، لا بعد انقضائه، فيكون وقع السُّؤال أبلغ، ومجال الإنكار أوسع.

ثمَّ هو من جهة أخرى، مضارع دالٌّ على الاستمرار والدَّوام؛ لأنَّ الزَّرع فعل يتكرَّر في حياة الإنسان، موسمًا بعد موسم، جيلًا بعد جيل، وقد تُنسيه عادته مصدر النِّعمة، فيظنُّ أنَّه المالك والمُبدِئ، فجاء التَّعبير بالمضارع؛ ليوقظه في كلِّ وقت، كأنَّ الآية تسأله: وفي كلِّ مرَّة تزرع، أتظنُّ أنَّك أنت الفاعل؟.

بلاغة الاحتباك بين فعلي الحرث والزِّراعة:

الاحتباكُ تناسقُ الحذف والذِّكر لإتمام البيان

جاءت الآية بأسلوبٍ بالغ الإيجاز والدِّقَّة، فذكرت الحرث في الجملة الأولى: ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾، ثمَّ انتقلت إلى الزَّرع في الجملة الثّانية: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾، فوقع في النَّفس تساؤل: لِمَ لَم يُذكَر الزَّرع مع الحرث في الأولى، ولا الحرث مع الزَّرع في الثّانية؟ وهنا تظهر بلاغة الاحتباك؛ إذ حُذِف من كلِّ موضع ما ذُكِر في الآخر، فصار الكلام مكتملًا عند ضمِّ الطَّرفين، دون حاجة إلى التَّكرار، والتَّقدير هو: أفَرَأيتُم ما تَحرُثونَ، وتزرعون، أأنتم تحرثونه، وتزرعونه؟ لكنَّ القرآن - بعظيم بلاغته - اقتصر على ذكر الحرث أوَّلًا؛ لأنَّه فعل الإنسان الظّاهر، ثمَّ قَصَر الاستفهام على الزَّرع ثانيًا؛ لأنَّه فعل الله الخفيُّ، مع حذف ما يُفهم من السّياق بطريق الاحتباك، فأنتج ذلك أسلوبًا أوجز وأقوى وقعًا، وفي هذا الاحتباك مزية بلاغيَّة عظيمة؛ لأنَّه يُلفت النَّظر إلى فارق جوهريٍّ بين الفعلين، فالحرث فعل مادّيٌّ بسيط، والزَّرع فعل إلهيٌّ معجز، ويوحي ضمنًا بأنَّ الإنسان لا يملك إلّا الحرث، وأمّا الزَّرع - أي: الإحياء والإخراج من الأرض - فهو فعل لا يقدر عليه إلّا الله.

نوع ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ للعطف، وهي تحتمل

أن تكون منقطعةً؛ لأنَّ بعدها جملة، والمنقطعة تقدَّر بـ (بل) وهمزة الاستفهام، فيكون الكلام مشتملًا على استفهامين، فالأوَّل: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ وجوابه: (لا)، والثّاني: مأخوذ من ﴿أَمۡ﴾، أي: بل نحن الزّارعون وجوابه (نعم)، أو لأنَّ الاستفهام ليس بحقيقيٍّ، فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل، ويكون الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾، والمعنى: أتظنّون أنفسكم زارعين؟.

احتمال الانقطاع والاتّصال واردٌ في النَّظم الجزيل

وتحتمل أن تكون ﴿أَمۡ﴾ متَّصلة، فهي معادلة، ويؤيِّد هذا الوجه أنَّ الكلام يؤول إلى أيِّ الأمرين واقع، والجملة بعدها في تأويل المفرد، كما أنَّ ما بعدها معطوف؛ لأنَّ الغالب ألّا يذكر له خبر؛ اكتفاءً بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف، وههنا أعيد الخبر في قوله: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، زيادة في تقرير إسناد فعل الزِّراعة إلى الله في المعنى وللإيفاء بالفاصلة وامتداد نفس الوقف[1].

بلاغة القصر بتقديم المسند إليه على المسند:

الزَّرع لله تعالى وحده وكلُّ زارعٍ سواه فمحض خيال متوهَّم

تقديم المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾ على المسند ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، في قول الله تعالى: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، جاء لتحقيق القصر البلاغيِّ، وهو "قصر مبالغة لعدم الاعتداد بزرع النّاس"[2]، يُفيد الحصر والتَّوكيد، أي: لا زارعَ سوانا، فنحن أصحاب القدرة على الإنبات والإحياء[3].

وهذا الأسلوب أبلغ في إثبات الفعل لله وحده من أن يُقال: (نحن نزرع)؛ لأنَّ التَّعبير بـ ﴿نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ يُثبت الاسم الثّابت الدّائم، لا مجرَّد الفعل العابر، فكأنَّه يقول: نحن المتَّصفون بالزَّرع، المختصون به على الحقيقة، أمّا أنتم؛ فليست لكم صفةٌ فيه، ولا حظٌّ من فعله.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 314، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 441.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 321.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 127.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾:

القصر الحقيقيُّ تثبيت الفعل الإلـهـيِّ ونفي الشَّراكة

(الـ) في لفظِ ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ هي (الـ) الجنسيَّة الحقيقيَّة، الدّالَّة على الاستغراق التّامِّ في الحقيقة، لا لمجرَّد التَّعريف، ولا للعهد، بل لبيان أنَّ الزَّرع - بمعناه الحقيقيِّ الكامل الَّذي يتضمَّن الإحياء والنَّماء - منحصِر في اللّه وحده، وأنَّه هو المتَّصف بهذه الصِّفة على وجه الحصر، والمعنى: أم نحن الَّذين نملك حقيقة الزَّرع كلِّه، دون شريك ولا معارض؟.

فائدة التَّعبير باسم الفاعل:

كلُّ ظنٍّ بامتلاك القدرة على الزَّرع والإنماء فمحض خيال

التَّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ يُفيد الثُّبوت والدَّيمومة، لا مجرَّد الفعل العرضيِّ، أي: نحن وحدنا أهل الزَّرع، لا أنتم ولا أحد سوانا، وهي هنا لتعريف الحقيقة[1]، وهذا المعنى يعمِّق ما أفاده القصر بالتَّقديم قبله: ﴿نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، وأن (الـ) حين تُضاف إلى اسم فاعل في هذا السّياق، تُفيد القصر على صاحب الصِّفة الكاملة، وهي أبلغ من قولك: (نحن نزرع)؛ لأنَّك تقول هنا: (نحن الَّذين لا يستحقُّ الزَّرع أحد سوانا).

نوع ﴿لَوۡ﴾ ودلالتها:

بيانٌ رحمةِ الله بالتَّنبيه على أضداد المعهود تنبيهٌ وإيقاظ

﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ شرطيَّة، لكنَّها ليست شرطًا لامتناع شيء على شيء، كما في (لو جاءني؛ لأكرمته)، بل هي من ﴿لَوۡ﴾ الشَّرطيَّة الامتناعيَّة الواقعة؛ لتقريب الفرض وتفخيم القدرة، فهي تدلُّ على إمكان الشَّيء في قدرة اللّه، وإن لم يقع، والمعنى: لو شاء اللّه؛ لجعل ما تحرثونه حطامًا، بعد بذرِه أو إنباتِه، في لحظة واحدة، لكنَّه لم يشأ ذلك، رحمةً بكم، ولحكمةٍ منه، فامتناع الحطام ليس لعجز، بل لحِلم وتقدير.

(1) ابن هشام، المُغني: 1/ 50.

وجاءت ﴿لَوْ﴾ هنا؛ لتوقظ القلب من غفلته، فتبصِّره أنَّ النِّعمة الَّتي بين يديه معلَّقة بمحض مشيئة الله، وأنَّ استمرارها ليس حتميًّا، بل هو لطف مستمرٌّ، يمكن أن يُرفَع في أيِّ لحظة، فمضمون الجواب واقع؛ لولا أنَّ الله شاء خلافه، وفيه تهديد ضمنيٌّ، فلا تأمنوا سنَّته، ولا تغترّوا بعادته.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿نَشَآءُ﴾:

تهديد بالمشيئة الحاضرة المتجدِّدة لا بالقدرة الماضية

جاء فعل ﴿نَشَآءُ﴾ بصيغة المضارع لا الماضي، مع أنَّ جملة الشَّرط تُفيد معنًى مفترضًا غير واقع؛ ليُشير إلى أنَّ المشيئة الإلهيَّة قائمة مستمرَّة متجدِّدة، لا تنقضي في زمن، ولا تتوقَّف عند واقعة، بل هي حاضرة أبدًا، فلو شاء الله الآن أو في المستقبلِ؛ لوقع الحطام، فأفاد المضارع الدَّوام والاستمرار والاقتراب، وهو أبلغ في التَّخويف والتَّحذير من صيغة الماضي؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بأنَّ النِّعمة معلَّقة بمشيئة راهنة متَّصلة متجدِّدة، وليست ماضية قد انقضى زمانها، وذهب أوانها.

نوع اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾:

مانعُ من رفع النِّعمة وإنزال النِّقمة رحمة الله الَّتي وسعت كلَّ شيء

اللّام في ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ هي لام جواب ﴿لَوْ﴾ الشَّرطيَّة، وقد أفادت تحقيقَ الجواب وتوكيد إمكان الوقوع، ويكثر اقتران جواب ﴿لَوْ﴾ بهذه اللّام؛ إذا كان ماضيًا مثبتًا[1]، ومجيء هذه اللّام في الجواب يُفيد أنَّ الفعل التّالي لها ليس مجرَّد فرض ذهنيٍّ، بل هو أمر ممكن الوقوع حقًّا، داخل في قدرة الله، لكنَّه لم يقع رحمةً من الله وتدبيرًا، ومعنى ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾: لتحقَّق وقوعه قطعًا بمجرَّد مشيئتنا، فلا مانع يمنعنا، ولا عجز يحول دوننا، وإنَّما الَّذي حال دون ذلك هو مشيئة راحمة، لا عجز قاصر، وفي هذا التَّوكيد تهديد ضمنيٌّ، وتخويف

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 321.

بقدرة الله النّافذة، الّتي تملك تقليب النِّعمة نقمة في لمح البصر؛ إن شاء سبحانه.

فائدة الإطناب في قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾:

التَّعبير بـ ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ إطناب بليغ فيه لا تُحقِّقه لفظة (لحطمناه) الموجزة؛ وذلك أنَّ فعل (لحطّمناه) يقتصر على الكَسْر والتَّهشيم، أمّا (جعلناه حطامًا) فتصوِّر النَّتيجة التّامَّة بعد وقوع الفعل، أي: صورة ما يصير إليه النَّباتُ هشيمًا يابسًا منثورًا لا مجرَّد كَسْره، و(الحطام) اسم جامد يدلُّ على الحالة النِّهائيَّة للمحطَّم، بما فيها من يَبَسٍ وتبَعْثُر وفقدان حياة، في حين أنَّ (حطَّم) فعل لا يُفصح عن تلك الصّورة كاملةً، فالتَّعبير القرآنيُّ يُظهر قدرة الله على تحويل الكائن النّامي إلى مادَّة لا حياة فيها ولا نفع، لا مجرَّد تهشيمها.

تصوير النَّتيجة النِّهائيَّة بكاملِها لا الاقتصار على ذكرِ التَّحطيم

وجاء هذا اللَّفظ في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾؛ ليصوِّر الزَّرعَ الَّذي كنتم ترجون ثمره وخيره، وقد آل إلى فتاتٍ يابسٍ منثورٍ لا حياةَ فيه ولا نفع، كأنْ لم يكن بالأمس شيئًا مذكورًا، وفي هذا التَّعبير إيحاءٌ بحقيقة الفناء، وضربٌ من الاستدلال الحسّيِّ الَّذي يقرِّب للذِّهن إمكان البعث، فإنَّ مَن يُشاهد تقلُّب النَّبات من الحَبَّة إلى الزَّرع، ثمَّ إلى الحطام، يدرك أنَّ الله الَّذي يُنبت، ويُفني، هو قادرٌ على أن يُعيد النَّشأة للإنسان بعد أن يصير ترابًا.

مشاهدةُ تقلّبِ حـال النـبـات دليل حسّي على إمكان البعث

غرض إسناد فعل الجعل إلى ضمير العظمة:

إسناد فعل الجعل إلى ضمير العظمة ﴿نَحْنُ﴾ هو ضرب من ضروب التَّهويل والتَّفخيم والتَّقريع، يُقصد به توكيدُ فعل التَّحطيم بأنَّه بيد الله وحده، وغرض ذلك إرهاب النَّفس الغافلة، وتذكيرها بأنَّ من رزقها الزَّرع، هو ذاته القادر على أن يذهبه عن وجه الأرض - لو شاء - في طرفة عين، وفي إسناد فعل الجعل إلى الضَّمير لا

تفخيم القدرة وتقريع الغافل وقصر الأمر على صاحبِ الأمر

إلى الاسم الجليل (اللّه) أو (الرَّبِّ)، يجعل الخطاب أقرب وأشدَّ مباشرة، فيشعر المخاطَب أنَّ المهيمن حاضر، متكلِّم، مهيب، يجب أن يُخشى تهديده، وأن يُخاف وعيده.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾:

إضمار مشحون بالرّابط بين الحرث والحطام المُنتج للحبِّ والنَّبات

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائد على ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾، أي: على ذلك الشَّيء الَّذي تُباشرونه بالحرث، وهو في تقدير المعنى: الزَّرع النّاتج عن الحرث، وقد عبَّر النَّصُّ أوَّلًا بالفعل: ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾، ثمَّ جاء بعده قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، فيُفهم أنَّ المقصود بـ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ليس التُّراب ولا المحراث، بل الحَبُّ المزروع الَّذي ينمو، ويصير زرعًا؛ فالمراد بالضَّمير في ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾: الزَّرع النّاتج عن الحرث والبذر، أي: لو نشاء؛ لحوَّلنا الزَّرع بعد إنباته إلى حطامٍ يابسٍ تذروه الرّياح، يذهب هدرًا بعد أن كنتم ترجون حصاده.

بلاغة استعمال مفردة ﴿حُطَٰمًا﴾ مادَّة وصيغة:

الحُطام لفظٌ يُدخل في النَّفس الانكسار والاندثار والفزع والجزع

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿حُطَٰمًا﴾، في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾؛ لما تحمله المفردة من إيحاءات بلاغيَّة قويَّة، تُصوِّر نهاية الزَّرع تصويرًا مرعبًا، يتجاوز مجرَّد التَّلف إلى صورة التَّحطيم والاندثار الكامل، وسمّيت النّار الحطمة لحطمها ما تَلْقى[1]، فمادَّة (حَطَمَ) في أصلها اللُّغويِّ تدلُّ على التَّكسير والتَّهشيم، لا على الذُّبول أو الجفاف فحسب، وقيل: هو كسر اليابس خاصَّة[2].

واختيار الصّيغة (فُعال) في (حُطام) زاد المعنى قوَّة؛ لأنَّ هذه البنية الصَّرفيَّة لا تدلُّ على الفعل وحده، بل تشير إلى الهيئة والمآل، فكأنَّ الشَّيء كلَّه قد انقلب إلى صورة الحطام، وصار هذا التَّحطيم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حطم).
(2) ابن سيده، المُحكم: (حطم).

صفته الكاملة، لا شيئًا أصابه جزئيًّا أو عارضًا، فليس هو مجرَّد مكسور، بل هو (الحُطام) ذاته، وهذا أبلغ في بيان أنَّ الزَّرع قد بلغ من التَّلف ما لم يُبقِ له قوامًا ولا أثرًا.

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَظَلْتُمْ﴾:

الحطامُ أصلٌ يتفرَّع عنه الحيرة والشَّكوى واضطراب النَّفس

الفاء في قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ هي فاء التَّفريع السَّببيِّ، دخلت على جملةٍ مترتِّبة على ما قبلها، فـ "قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ تفريع على جملة: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾، أي: يتفرَّع على جعله حطامًا أن تصيروا تقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، ففعل (ظَلْتُم) هنا بمعنى: صرتم، وعلى هذا حَمَله جميع المفسِّرين"[1].

وتوحي الفاء بمباغتة الحدث، فالفعل الإلهيُّ إذا نزل فجأة، وما إن وقع حتَّى انفتحت عليكم أبواب الذُّهول والتَّحسُّر، ووقعتم في الحيرة والشَّكوى، فتسلسلت في أعماقكم مشاعر لا تملكون لها دفعًا.

غرض استعمال مفردة ﴿فَظَلْتُمْ﴾ دون (فصرتم):

استمرار الحسرة وطول زمن الانفعال إثر تحطيم الزَّرع

استعمال قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ بدلًا من أن يُقال: (فصرتم تفكَّهون)، يحمل دلالة بلاغيَّة دقيقة، وهي أنَّ في فعل (ظلَّ) دون (صار) خصوصيَّة الزَّمن والانفعال معًا، على نحوٍ لا يؤدّيه الثّاني، ففعل (ظلَّ) يدلُّ على الدَّوام والاستمرار في زمن النَّهار، ولذلك فاستعماله هنا يوحي بخطاب المنكرين: بأنَّكم تماديتم في التَّفكُّه والتَّعجُّب والنَّدم طيلة النَّهار، في استغراق متواصل وقلق متتابع، وهذا يتلاءم مع المقام؛ لأنَّ الزَّرع إذا أُفسِد فجأة؛ فليس ردُّ الفعل مجرَّد لحظة، بل حالة من الدَّهشة والحزن والتَّساؤل تستمرُّ في الزَّمن، خاصَّة إذا كان كلُّ رجاء الإنسان متعلِّقًا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 322.

بهذا الزَّرع، فـ(ظلَّ) تُصوِّرُ النَّفس، وهي تبيت على الحسرة، وتصبح عليها، لا تكاد تفيق منها.

بلاغة حذف إحدى لامي ظلَّ وتاء التَّفكُّه:

الحذف التَّخفيفيُّ إيماءٌ صوتيٌّ يُنادي على كوامن النَّفس البشريَّة

في قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تتجلَّى بلاغة قرآنيَّة دقيقة في استخدام الحذف الصَّرفيِّ؛ إذ حُذِفت إحدى لامي "ظلَّ" (والأصل: ظللتم)، وحُذِفت كذلك إحدى التّاءين من "تفكَّهون" (والأصل: تتفكَّهون)، فيما يُعرف بالحذف التَّخفيفيِّ، وهو أسلوب يُراعى فيه التَّخفيف الصَّوتيُّ وخفَّة اللَّفظ، خاصَّة في المواطن الَّتي تتَّسم بالانفعال أو المفاجأة أو التَّهويل.

والحذف هنا لا يقف عند حدِّ التَّخفيف الصَّوتيِّ، بل يتعدّاه إلى بُعْدٍ بلاغيٍّ عميق؛ إذ يُسهم في الإيجاز دون الإخلال بالمعنى، ويعطي العبارة وقعًا سريعًا ومباغتًا ينسجم مع سياق الآية الَّذي يُصوِّر مشهد الانهيار والخذلان، حين يرى النّاس زرعهم، وقد تحطَّم فجأةً، فالإيجاز اللَّفظيُّ يومئ إلى سرعة الأحداث، واختناق المشاعر عند وقوع الكارثة.

توجيه استعمال مفردة ﴿تَفَكَّهُونَ﴾:

المفارقة بين شديد التَّحسُّر واللامبالاة النَّفسيَّة عند وقوع المصائب الجسيمة

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، الَّتي تدلُّ في أصلها على الفرح والانبساط، وعلى التَّلذُّذ والسُّرور، في قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، والسّياق سياق زجر وبيان لعجز الإنسان وضعفه أمام قدرة الله؛ إذ الزَّرع الَّذي به قوام حياته قد صار حطامًا، فكيف يتفكَّه من فقَد قوَّته؟ وقد اختلف المفسِّرون في بيانها، فقيل: تعجبون، وقيل: تتلاومون، وقيل: تندمون، وقيل: تحزنون، وقيل: هو تلهُّف على ما فات، وقيل: فعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ من الأضداد تقول العرب: تفكَّهت، أي: تنعَّمت، وتفكَّهتُ، أي: حزِنتُ[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 418 - 419، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 322.

ولهذه المفردة دلالة بليغة في هذا السّياق؛ إذ المعنى أنَّ من نزلت به تلك الواقعة؛ فإنَّ كلامه الصّادر عنه يُشبه كلام من يتفكَّه سرورًا وحبورًا، لا أنَّه مسرور، وهذه حالة نفسيَّة يمرُّ بها شديد الحزن وعظيم الهول ممّا وقع به، فالمفردة في سياقها تنطوي على مفارقة بلاغيَّة مقصودة، يظهر فيها اللَّفظ بصورة، وتدلُّ الحال على ضدِّها، فالتَّفكُّه هنا إمّا أن يُحمل على التَّهكُّم من فرط الذُّهول؛ إذ يُصدَم الإنسان صدمةً تنقله إلى حال من الهذيان والعبث، فيقول ما لا يليق بالمقام، أو يُظهر ما لا يطابق ما في الباطن، وإمّا أن يكون التَّفكُّه على وجه اللامبالاة الظّاهرة، كحال من تَغَلَّب عليه الحزن، فأخذ يضحك ضحك المتحيِّرين، أو هو على ظاهره، من حيث استعمال الكلمة في سياق الحسرة المتلذِّذة بالمفقود، فيتحسَّرون على زرعهم كما يتحسَّر من فقد طعامًا يتفكَّه به، وكأنَّهم يستشعرون الفقد الفادح بما يندُّ عن التَّعبير الجادِّ.

بلاغة التَّوكيد في جملة: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾:

تصوير الانكسار وإيقاظ الغفلة لما يدور في النَّفس

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، جاء التَّوكيد بـ(إنّ) واللّام في ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ لحكمة بلاغيَّة دقيقة، تتناسب مع المشهد المرسوم في السّياق؛ إذ الزَّرع قد صار حطامًا، والنُّفوس في حال من الذُّهول والاضطراب، فهذا التَّوكيد يُجسِّد شدَّة وقع المصيبة على المتكلِّمين، ويصوِّر عمق اليقين الَّذي وقع في نفوسهم بأنَّ ما أصابهم لم يكن مجرَّد خسارة زراعيَّة عارضة، بل هو غُرمٌ لازمٌ، ونكبة موجعة لا فكاك منها.

توجيه القراءات القرآنيَّة في جملة ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾:

قرأ الجمهور: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ بهمزة واحدة، وهي همزة (إنَّ)، وقَرَأ عاصِم وحده في رِوايَة شعبة بهمزتين: همزة استفهام وهمزة

(إنَّ): ﴿أَءِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾[1]، والقراءتان تحملان دلالات بلاغيَّة ومعنويَّة مختلفة، فالقراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور، جاءت بهمزة واحدة هي همزة "إنَّ" التَّوكيديَّة، فتفيد التَّوكيد والإقرار، وكأنَّ القوم يعلنون يقينهم بأنَّهم واقعون في الغُرم، أي: الخسارة أو العقوبة أو الهلاك، فيُسلِّمون بالأمر، ويقرّون بالعجز أمامه، أمّا القراءة الثّانية، وهي قراءة عاصم في شعبة، فقد وردت بهمزتين: همزة استفهام وهمزة ﴿أَءِنَّا﴾، فتُصبح الجملة استفهاميَّة تنطوي على معنى التَّعجُّب أو الإنكار، وكأنَّهم يقولون باستغراب: "أحقًّا إنَّنا لمغرمون؟"، فيدلُّ ذلك على دهشتهم أو مكابرتهم أو عدم تصديقهم لما حلَّ بهم، رغم وقوع البلاء، وتُبرز هذه القراءة موقفًا مختلفًا، يُشبه حال الإنسان حين يصدمه الابتلاء فينكره، أو يستغربه قبل أن يستوعبه، وهكذا تتكامل القراءتان في رسم حالتين بشريتين أمام الشِّدَّة - الأولى تعبِّر عن الاستسلام والانكسار، والثّانية عن الدَّهشة والإنكار - لتُصوِّر الآية في الحالتين الاضطراب الدّاخليَّ الَّذي تعكسه الكلمات حين تواجه النَّفس وقع البلاء.

بيان الحالة النَّفسيَّة بين التَّوكيد لما وقع والاستفهام عمّا وقع

بلاغة استعمال مفردة ﴿لَمُغۡرَمُونَ﴾:

توحي مفردة ﴿لَمُغۡرَمُونَ﴾ بأنَّ ما أصابهم ليس مجرَّد خسارة عابرة، بل بلاء ملزم ثقيل كالغرامة الماليَّة المفروضة، فيها شعور بالقهر والعجز، ذلك أنَّ مفردة الغرام تدلُّ في اللُّغة على الولوع والشَّرِّ الدّائم والهلاك والعذاب، والغرامة ما يلزم أداؤه[2]، ومآل اللَّفظ إلى الهلاك[3]، فاختيار هذه اللَّفظة بدل (خسرنا) أو (فقدنا) أدقُّ في تصوير الموقف النَّفسيِّ، فهي تحمل ظلال الإلزام، والنَّدم، والانكسار، وهي تهيئة للآية التّالية ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾،

الغرم حالةٌ من الهلاك والعذاب تُحيط بالغارم بسبب ثقل وخسارة تلحقه

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 623.
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 1142.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 323.

الَّتي تُظهر تمام شعورهم بالخيبة والخذلان، بعد أن رأوا ما زرعوه ينهار أمامهم دون أن يملكوا من أمرهم شيئًا.

دلالة حرف الإضراب ﴿بَلْ﴾:

التَّدرُّج من الاعتراف بالمصيبة إلى الحرمان الكلّيّ

جاء حرف الإضراب ﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾؛ لينقل الحديث من دعوى إلى ما هو أدقُّ وأبلغ في تصوير حالهم، لا لمجرَّد نفي لما قبل، بل للتَّصويب والتَّصعيد، فبعد أن قالوا: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، أي: أصابتنا غرامة وخسارة، جاء الإضراب بـ﴿بَلْ﴾ ليُظهِر أنَّ الحال أشدُّ من مجرَّد خسارة ماليَّة، إنَّهم محرومون، أي: مُنِعوا من النِّعمة أصلًا، فلا هي وصلت إليهم، ولا هم انتفعوا بها، فصاروا في الحدِّ الأقصى من الفقد والخذلان، فالإضراب هنا انتقاليٌّ تصحيحيٌّ، كأنَّهم قالوا: لسنا فقط مغرَمين بما خسرنا، بل الواقع أنَّنا لم نملك شيئًا أصلًا، نحن محرومون منه من الأساس[1].

غرض تقديم المسند إليه على المسند:

قُدِّم المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المسند ﴿مَحْرُومُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾؛ لتقوية الحكم وتوكيده، وهو ما يعكس الحالة النَّفسيَّة الَّتي يعيشها أولئك المخزيّون.

بلاغة استعمال مفردة الحرمان:

الحرمان منعٌ بعد رجاء الحصاد وإيقاف بعد تدفُّق الخيرات

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿مَحْرُومُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، دون رديفاتها؛ لما في هذه المفردة من بلاغة تُفصح عن معنى الحرمان القهريِّ، والمنع بعد الرَّجاء، والخذلان بعد الأمل، فالزَّرع بعد أن أوشك على الاكتمال، واليد امتدَّت للحصاد، فإذا هي تُمنع فجأة، وتُصفَع بالخيبة، ويُحال بينها وبين الثَّمرة.

والحرمان يتضمَّن الإقصاء عن النِّعمة بعد قربها، فهو أشدُّ وقعًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 419.

من مجرَّد الفقد؛ لأنَّ الفاقد قد لا يرجو، أمّا المحروم؛ فقد رجى ثمَّ حُرِم، فتتضاعف الحسرة، وهذه اللَّفظة تصوِّر شدَّة الكارثة بعد اكتمال الأمل في الزَّرع والنَّتيجة، وهو أن يتحوَّل إلى حُطام لا يُنتفع به.

فائدة ترتيب ذكر ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ ثمَّ ﴿مَحْرُومُونَ﴾:

الانتقالُ من الفهم المادّيِّ السَّطحيِّ إلى الإدراك الفكريِّ العميق

جاء ترتيب القولين في الآية: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، على نسقٍ بديع يرسم تدرُّج الشُّعور البشريِّ عند الصَّدمة بفقد النِّعمة، ويفتح بابًا عميقًا للتَّأمُّل في تفاوت مستويات الإدراك، والانتقال من وهم الأسباب إلى مواجهة القدر.

فابتداءً بـ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾، عبَّروا عن تصوُّرهم الأوَّل؛ إذ رأوا في ضياع الزَّرع خسارة ماليَّة، وغُرمًا واقعًا عليهم، كما يقع على التّاجر حين يخسر ماله، فالغُرم في معناه القريب يدلُّ على الضَّمان والتَّبِعة الماليَّة، فهُم حملوا السَّبب على حساباتهم وأخطائهم أو سوء حظِّهم.

لكن سرعان ما أفاقوا من هذا الظَّنِّ، وانتقلوا إلى حقيقة أعمق وأوجع، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، وهنا يأتي الإضراب بـ﴿بَلْ﴾؛ لينقض ما قبله، ويبدِّله إلى فهم جديد، فليس ما أصابنا مجرَّد غُرم دنيويٍّ، بل هو حرمان قدَريٌّ، ومنع إلهيٌّ، وتصفية من السَّماء، إنَّهم لم يُغرموا فقط، بل مُحقتِ البركة كلُّها، ومُنع الرِّزق من أصله، فلا طاقة لهم بجبره، ولا حيلة في دفعه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البذر والزَّرع:

بداية البذر الزَّرع والزَّرع ثمرته ونتاجه

(البَذر) الباء والذّال والرّاء أصل واحد، وهو نثر الشَّيء وتفريقه، يقال: بذرتُ البذر أبذرُه بذرًا، وبذَّرتُ المال أُبذِّرُه تبذيرًا[1]، والبذر إلقاء البذور في التُّربة، وهو عمل البشر واختيارهم، لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بذر).

يحتاج إلّا إلى سبب قريب وإرادة ميسورة، أمّا (الزَّرع)؛ فيدلُّ على تنمية الشَّيء[1]، فالزَّرع نتاج البذر، وهو ثمرة خفيَّة النَّماء، مركَّبة في تكوينها، معتمدة في وجودها على عوامل تتجاوز قدرة الإنسان وتدبيره، كشقِّ البذور، وإنبات الجذور، وتغذية السّاق، وتصريف الماء والهواء والضَّوء، وهي كلُّها ممّا لا يملك الإنسان فيه إلّا النَّظر والعجب؛ ولهذا قال: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، ولم يقل: (أأنتم تبذرونه)؛ إذ البذر داخل في وسعهم، أمّا الزَّرع؛ فخارج عنه.

والتَّعبير بالزَّرع دون البذر يحمل في طَيّاتِهِ معنى النَّماء المتَّصل، والحياة الكاملة الَّتي تتفتَّح بعد سكون، كما يحمل تذكيرًا بأنَّ تلك النَّشأة الثّانية، الَّتي أنكروها، ليست بأعجب من النَّشأة الأولى، الَّتي يشاهدونها في كلِّ سنبلة تنشقُّ عن حبَّة ميتة، أفينكرون البعث، وهم يرون الزَّرع؟.

الحطام والهشيم:

الحُطام يكون لما هو شديد القسوة والهشيم للیابس الأجوف

(الحُطام) ما تكسَّر من اليابس، ومنه الحَطم: الكسر بشدَّة[2]، فهو سحقٌ حتَّى لا يبقى منه إلّا شذر مبعثر، أمّا (الهَشيم)؛ فدلالته أضعف حدَّةً؛ إذ يدلُّ على كَسرِ الشَّيءِ الأجوف والشَّيء اليابس[3]، هَشَمتُ أنفَه، أي: كَسَرت قَصبَتَهَ[4]، أو يدلُّ على التَّناثر بلين، وربَّما بمرٍّ الرّيح، دون اصطدام أو عنف.

الغرام واللُّزوم:

الغَرام يدلُّ على اللُّزوم بشدَّة واللُّزوم أعمُّ من ذلك

(اللُّزوم) يدلُّ على مصاحبة الشَّيء بالشَّيء دائمًا، يقال: لزمه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زرع).
(2) الخليل، العين: 3/ 175، والصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حطم).
(3) الخليل، العين، والصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (هشم).
(4) الخليل، العين: (هشم).

الشَّيء يلزمه، واللِّزام: العذاب الملازم للكفّار[1]، واللُّزوم في أصل دلالته يشير إلى مجرَّد التَّعلُّق والثَّبات، وهو حياديٌّ في طبيعته، فقد يلزم الشَّيء نفعًا أو ضرًّا، ويكون من جهة الذّات أو من جهة الآخر، لكنَّه لا يُشعر بغير المجاورة والدَّيمومة في التصاق السَّبب بالمسبَّب، دون أن يتضمَّن بالضَّرورة ألمًا أو فواتًا، تقول: (لزمه الدَّين)، أي: التزمه، والتزم سداده، دون أن يكون في ذلك ما يفيد الشِّدَّة أو العذاب، أمّا (الغَرام)؛ ففيه - إلى جانب معنى اللُّزوم - إيغال في الشِّدَّة، والتصاق لا انفكاكَ منه مقرونٌ بالألم والعذاب، ومن دلالة الكلمة في المعاجم: "الغرام هو العذاب الملازم"، وقال الرّاغب: "الغَرامُ: ما ينوب الإنسان من شدَّة ومصيبة"[2]، ولذلك سُمّي العذاب الأبديُّ في الآخرة غرامًا، كما في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: 66]، ثمَّ قال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: 65].

الحرمان والمنع:

الحرمان المنع والتَّشديد، فالحرام: ضدُّ الحلال[3]، فهو أخصُّ وأشدُّ؛ إذ يُشير إلى سلبٍ بعد تمكُّنٍ، أو رغبةٍ حادَّة فُجِعت بالخيبة، ولهذا يُقال: (حُرِم الثَّمرة)، أي: بعد أن أزهرت، و(حُرِم الجائزة) بعد السَّعي إليها، و(حُرِم النَّوم) بعد شدَّة التَّعب، فالحرمان إذًا يُشعر بخيبة أملٍ وحسرةٍ دفينة؛ إذ كان الإنسان قاب قوسين من النِّعمة، ثمَّ فاته الأمر في لحظة، فبقي النَّظر، وزالتِ المُتعة.

الحرمان منع بعد رجاء تحصيل المطلوب، والمنع أعمُّ منه، فهو خلاف الإعطاء

وأمّا المنع؛ خلاف الإعطاء، ومنعته الشَّيء منعًا، ومكان منيع، وهو في عزٍّ ومنعة[4]، فيدلُّ على الصَّدِّ عن الشَّيء قبل نيله، فهو إيقاف أو حيلولة دون وصول الإنسان إلى مبتغاه، سواء أدركه، أم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لزم).
(2) الراغب، المفردات: (غرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).

لم يدركه، تقول: (مُنِعَ من الماء)، أي: لم يُسمَح له به، أو صُدَّ عنه، وقد يُمنَع الغريب عن الدُّخول، أو الطِّفْل عن اللَّعب، من غير أن يكون قد تذوَّق ما مُنع منه أصلًا، فـ (المنع) سالب خارجيٌّ، يقع في وجه الرَّغبة، وقد يكون بالسُّلطة أو بالحال، ولا يُشترط فيه التَّملُّك السّابق أو التَّقرُّب إلى المطلوب.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"